جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم اللغة العربية
المرحلة الثالثة
المادة: فقه اللغة

عنوان المحاضرة

ظاهرة الإعراب في العربية

أ.م.د. سعد أحمد إبراهيم

ظاهرة الإعراب

تعد ظاهرة الإعراب أظهر وأقوى ميزات وخصائص العربية، إذ إنَّ هذه الظاهرة قد فقدت في بقية اللغات الجزريات كلها تقريباً، فتجردت منها الآرامية ولهجتها السريانية، وصارت ضئيلة في العبرية القديمة والبابلية القديمة، ذلك أنَّ البابلية بدأت بثلاث حركات، اختصرت بعد ذلك إلى اثنتين، هما الضمة في الة الرفع والكسرة في حالتي النصب والجر، وأخيراً صارت حركة واحدة هي الكسرة الممالة، على حين احتفظت العربية بحركاتها المختلفة على أواخر كلماتها، وهي الفتحة والضمة والكسرة والسكون، وهذا مما جعل كثيراً من علماء اللغات اليوم، يرون العربية أقدم اللغات الجزرية، وذلك لبقاء عنصر الإعراب فيها، الذي يعبر في العربية عن مراد المتكلم الذي يدور في ذهنه: من فاعلية ومفعولية ونسبة بين شيئين(إضافة) وما إليها، ولذلك قال ابن فارس في الباب الذي عقده لخصائص العربية: متحدثاً عن خاصة الإعراب بأنه((من العلوم الجليلة خُصَّت بها العرب))، وأنه هو ((الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ، وبه يعرف القصد الذي هو أصل الكلام، ولولاه ما ميز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ولا تعجب من استفهام)) وأنه ((فيه تميز المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين، وذلك أنَّ قائلاً لو قال:(ما أحسنْ زيدْ) غير معرب، أو (ضرب عمرْ زيدْ) غير معرب، لم يوقف على مراده، فإذا قال:(ما أحسنَ زيداً) أو (ماأحسنُ زيدٍ؟)أو (ما احسنَ زيدٌ) أبان بالإعراب عن المعنى الذي أراده)).

ومع وضوح هذه الحقيقة في العربية الفصحى قبل نزول القرآن وبعده، إلا أنَّ أحد المستشرقين وهو فولرز Vollers زعم بأنها حادثة في العربية، وأنَّ العربية الباقية كانت حتى ظهور القرآن غير معربة، وأنَّ الإعراب حدث بعد نزول القرآن بزمن، فحركوا به القرآن بعد ظهور اللحن، وهذا القول طائش حقاً ودعوى بلا دليل، ولعلَّ هذا المستشرق التبس عليه الأمر فخلط بين العربية الفصحى العامة (المشتركة) والعربية الفصحى الخاصة (اللهجات) ؛ فهذه اللهجات محلية محدودة تدور في بيئة معينة أو قبيلة معلومة، دون أن تكون لها تلك الصفة الشاملة الت تتسم بها اللغة الخاصة.

وقد احتمل أن تكون هذه اللهجات غير معربة، عدد من الباحثين، منهم المسشترق كوهين Cohen في كتابه (لغات العالم) والدكتور إبراهيم أنيس في كتابه (في اللهجات العربية) والدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه (فقه اللغة المقارن)، أي أنَّ المتكلم بهذه اللهجات كان يسكِّن أواخر الكلمات، كما نفعل اليوم نحن في لهجاتنا المعاصرة وكلامنا الدارج اليومي، غير أنَّ هذا الفرض غير مؤكد، في الواقع، تأكيداً لا يشوبه ريب، وذلك أنَّ من المحتمل أن تكون هذه اللهجات معربة، وأن يكون المتكلم إنما يسكِّن أواخر الكلم عند الوقوف على آخر الجملة فحسب، وليس عند كلمة، وهذا هو الأقرب في ما يبدو لنا، ومن ذهب إلى العكس فعليه أن يقدم الدليل

القاطع، إذ لا يغني الفرض وحده من الحق شيئاً، ولا يؤدي _ بغير دليل _ إلى العلم، ولا يصح قياس العربية الأولى على اللهجات العامية الحاضرة، وأن نتخذها دليلاً على أنَّ العربية الفصحى المتعلقة باللهجات كانت معربة، وقد فند الدكتور علي عبد الواحد الوافي هذا القول بعدة أدلة مقنعة في كتابة (فقه اللغة).

على أنَّ العربية الفصحى تختلف عن الفصحى المحلية، وهي اللهجات، والذي عناه هذا المستشرق حين نفى ظاهرة الإعراب، إنما هي الفصحى لا العامية، ويبدو أنه مدفوع بدوافع أخرى بعيدة عن الحقيقة العلمية المجردة، وفي التعصب على العرب والعربية، ومحاولة سلبها طائفة من خصائصها التي تميزت بها من اللغات الجزرية الأخرى، قال هذا المستشرق:((إنَّ القرآن نزل بلهجة مكة الخالية من ظاهرة الإعراب، ثم نقَّحه العلماء على ما ارتضوه من قواعد ومقاييس حتى أضحى يُقرأ بهذا البيان العذب الصافي، وغدا في الفصاحة مضرب الأمثال)).

أما قول فولرز فقد رد عليه المستشرقون ورفضوا فكرته، فقد فند نولدكه رأيه الزائغ ونقده نقداً علمياً موضوعياً؛ وقال:((إنَّ أغلب ما تصوره وتوهمه فولرز تجرَّداً وخلواً من الإعراب، إنما كان صوراً من تساهل الناس في القراءة لاختلاطهم بالأعاجم وشيوع اللحن والتحريف، فليس للنص القرآن أي صلة بشيء من هذه اللحون من قريب أو بعيد)).

على أي حال لم يعد أحد من المستشرقين يشارك فولرز في رأيه ، فهذا (فولفديتريش فيشر) يقول:((ولم يعد أحد يشارك الفهم الذي مثله ك.فولرز، وهو أنَّ النص القرآني ربما دُوِّن في البداية بلهجة مكة، ثم نقحه فيما بعد علماء اللغة العرب وناسبوا بينه وبين معايير العربية الفصحى)). وفي المقابل خصص (مايكل زويتلر) دراسة كاملة في ما يخصُّ الرد على (فولرز)، وقال :((ولم تنجُ الدراسات المهمة التي انجزها بول كاله، وهو الذي أورد عدداً من الأحاديث وقولاً للفراء ليُبرهن على انَّ القرآن كان يُتْلى في الحقبة المبكرة من غير إعراب، في انقاذ فرضية فولرز الأساسية)).

والحق أنَّ هذا الذي قاله فولرز ليس مجرد وهم قد يقع فيه واهم، وإنما هو جهل، ذلك أنَّ قوله ((نقَّحه العلماء على ما ارتضوه...)) الخ، يدل على ذلك، فأي علماء يحق لهم أن يتصرفوا في النص المقدس الكريم؟! فعنصر الإعراب أساس وقديم في العربية ، وإنما كان عمل العلماء يتلخص في إنهم استنبطوا قواعده من القرآن والحديث والشعر، على أنَّ الذي يشهد له القرآن هو خلوه من أي نقص أو خلل، فقد قَالَ تَعَالَىٰ:﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ ﴾[هود:1]،وكان من إحكام كتاب الله واتقانه أنَّه من لدن الحكيم الخبير أنه جاء خالياً من كل نقص في خصائصه اللغوية، ومن ذلك أنه جاء معرباً إعراباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، بحيث إنه صار النموذج الأمثل للنحاة واللغويين في كل حين.

ومما ينقض رأي فولرز ويوهنه عدة أمور، نذكر منها:

1_ تواتر روايات ظهور اللحن في الإعراب، في عهد النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه، يدل على أن العربية الفصحى التي نزل بها القرآن كانت معربة، فقد قال أبو بكر الأنباري:((وجاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن أصحابه وتابعيهم رضي الله عنهم من تفضيل إعراب القرآن والحض على تعليمه وذم اللحن وكراهيته، ما وجب على قراء القرآن أن يأخذوا أنفسهم بالاجتهاد في تعلمه)).

2_دقة المقاييس التي وصلت إلينا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حجة دامغة على أنَّ اللغة التي نقلت بها كانت معربة، إذ كانوا يتشددون في النقل، فلا غرو بعد ذلك أن نجد من كبار النحاة من يقدم الحديث في باب الاستشهاد.

3_ ويضاف إلى هاتين الحجتين حجة ثالثة من داخل القرآن نفسه، ومن نسق تعبيره، وهي تقديمه المفعول على الفاعل في مواضع لغرض بلاغي، كتقديم لفظ الجلالة (الله) على لفظ (العلماء) في قوله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:28]، فنصب لفظ الجلالة ورفع العلماء ، والغرض من ذلك التخصيص؛ إذ يقول الزمخشري (ت538هـ) :((إنَّ الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء، دون غيرهم، وإذا عملت العكس _ يقصد جعلت الفاعل متقدماً على المفعول _ انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله:﴿ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

فهذا التقديم الذي يلحظ في الآية الكريمة، يدل على أن القرآن كان معرباً، إذ لو بم يكن كذلك لما عرف فيه الفاعل من المفعول، صحيح أن المسلم يدرك بسلامة عقيدته في التوحيد، أن العلماء هم الذين يخشون الله، ولكن الجاهلي المشرك يفوته ذلك، لأن مفاهيمه عن الإله ليست بتلك الدرجة من النقاء والسلامة، بدليل أنهم كانوا يرون الآلهة تضر وتنفع وتعطي وتمنع، وما إلى ذلك من صفات لا تليق بالله تعالى.

3_ يبدو أن هذه الفرية قديمة، قال بها بعض من اراد أن ينال من لغة القرآن، فقد ذكر ابن فارس أن قوما زعموا ((أنَّ العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف التي ننطق بها بأسمائها، وأنهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا رفعاً ولا نصباً ولا همزاً)) وأنهم احتجوا بما روي عن بعض الأعراب من انه لم يفهم من الهمز في قولهم له(أتهمز الفأر؟) مثلاً، لم يفهم إلا ((الضغط والعصر))، من الكلمة، وأنه لم يفهم من الجر إلا السحب، ومن النصب إلا ((إسناد الشيء))؟ ثم ردَّ ابن فارس على هذه المقولات بكلام منطقي مبني على اساس علمي سليم، وهو أنَّ أحداً لم يزعم بأن العرب كلها تعرف الكتابة وقراءة الخط، فليس من الضروري، والحال هذه، أن يعرفوا هذه المصطلحات، من همز وجر ونصب، إلى آخرها.